شم النسيم

في مركز بوليس!

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

اشتهيت مرة أن أخرج إلى الظل، ورقاق بمنبطح معشاب، وأن أجلس تحت شجرة عظيمة تميل عليّ أفنانها من الري واللين، فقلت لصاحب لي: «إني في أرض واسعة سهلة، ولكني كرهت مقامي بها، وأضجرني منها أني لا أرى في فضائها الرحيب عوداً نابتاً، ولا أسمع إلا صوت الرمال وهي تجرى على رمالها وتوقع بعضه على بعض، وغدا شم النسيم، فتعال بنا إلى ناحية من الريف قريبة من بعض أرباض المدينة، وعسى أن أجد بقعة في طريقنا، فأنزل بها وأسكنها، فقد اجتويت الصحراء كما قلت لك، وما أظن بي الا أن الحنين اليها سيعاودني، ولكن البعد عنها سنة أو سنتين، يكون كالاستجمام، فما قولك؟»

قال: «وتخرج في شم النسيم؟»

قلت «: ومالي لا أفعل؟ أهو حرام — عليّ وحدي؟»

قال: «لا، ولكنه يوم تكثر فيه العربدة، وأولى بك أن تلزم دارك — كعادتك»

قلت «: يا أخي، الله يوسع لي في الأرض، وأضيق على نفسي! كلا، ولن نعدم مكاناً ننأى فيه عن ضجات السكارى والعربدين، فاختر لنا مكاناً، وتوكل معي على الله»

فاختار «المرج»

* * *

وحملنا معنا كفايتنا من الطعام والشراب، وكنا أربعة — أو خمسة، لا أذكر — وركبنا قطار الزيتون وكان كالحمار النهّاق البليد، يمضي ويتوقف، ويميل هنا وهنا، ولا يزال يصلصل، كأنما يقطع أرضاً أو يصنع شيئاً يستحق هذه الضوضاء، وأنا امرؤ خلقني الله أكره التثاقل والاسترخاء، وأحب أن أفرغ مما أكون فيه بأسرع ما أستطيع، فمشيي قفز، وأكلي لَقْم، وكلامي لغط، وخطي أشبه بما تتركه أرجل الدجاج على الرمل، من فرط العجلة؛ ولا صبر لي على دلال امرأة، ولا أعرف التمهيد لشيء؛ فانه لف أو تطويل لا موجب له؛ وما أكثر ما أحببت، وما أسرع ما سلوت، وكم قلت لامرأة: «يا صاحبتي لقد أحببتك، ولكني لم أحبك ليَوْجِعَني رأسي وقلبي، فان كنت لا تحسنين إلا تصديعي وتنشيف ريقي، وإلا هذا الذي تسمينه دلالاً، فلا يا ستي ويفتح الله عليك بغيري» وأدعها وأمضي، ولا أعود بعدها إلى ذكرها. وما أكثر ما قلت لنفسي: «ما هذا يا مازني؟ إني أرى حبك قد طال ساعات، وهذا شيء يُمل ويُسئم، وليس معقولاً أن تحب غائباً كأنه حاضر معك! نعم معقول أن تحبه ساعة يكون إلى جانبك، ولكن بعد أن يمضي عنك أو تمضي أنت عنه، لا يُقبل منك أن يظل قلبك يتلفت اليه ويُشغل به عن سواه»

فتقول نفسي: «أي والله، صحيح»

وأستلقي على سريري وأغمض عيني، وأنام، ثم أقوم وقد نسيت حتى اسم من أحببتُ. لهذا قلت لأصحابي «يا رفاق! ما قولكم؟»

قالوا: «ماذا؟»

قلت: «ننزل من هذا القطار ونذهب نعدو إلى جانبه»

فضحكوا ولم يسمعوا مني، ولكني كنت واثقاً أني استطيع أن أسبقه على الرغم من عرجي؛ ونزلنا في «المرج» فلم نجد شجرة نجلس في ظلها، ولا جداراً يقينا وقدة الشمس، ولم نلمح في الأفق البعيد شيئاً يغري بالأمل، فقلت: أرجع إلى صحرائي فهي بي أرفق من هذا المرج فان لي فيها على الأقل بيتاً آوي اليه، والذي لا يرضى بالخوخ يرضى بشرابه

وإنا لكذلك وإذا بضابط يقبل علينا ويحيي واحداً منا، ويسأله عما جاء به، فيخبره أنه جاء معنا، ليشم النسيم، ولكنا لا نجد مكاناً ظليلاً نميل اليه، فيقول الضابط الكريم: «تعالوا عندي»، فنسأله «عندك أين؟ فانا لا نرى بيتا ولا كوخاً» فيقول: «في مركز البوليس، فاني ملاحظ النقطة!» فينظر بعضنا إلى بعض وأقول: «نشم النسيم في مركز البوليس! هذا جديد!»

وترددنا، ولكنه ضابط بوليس، وتحت أمره قوة كافية لارغامنا، فقلنا: «لا بأس! هي تجربة جديدة فلننظر ماذا عسى أن تفيدنا من المتعة؟ وما يدرينا؟ لعل مركز البوليس خير مكان نقضي فيه يومنا! وما نظن أن أحداً جرب ذلك من قبل، فهي ميزة ننفرد بها ونستبد»

ودخلنا المركز ، فدبت أقدام الجنود ، وارتفعت أيديهم إلى رؤوسهم بالتحية ، وتحركت عيونهم دون وجوههم ، وجعلت تنظر الينا وتتبعنا ونحن داخلون وممنا السلة فيها الطعام والشراب ، وصعدنا إلى غرفة فيها مائدة من خشب غير منجور ، وحولها كراسى ثقيلة ، وأنا نحيف هزيل ، يقول أحد الأطباء فى وصف جسمى إنه شبكة من الأعصاب تحملها طائفة من العظام ، وتكسو هذه وتلك طبقة رقيقة من الجلد ، ولا لحم لى ولا شحم فأحتمل الجلوس على هذه الكراسى الناشفة ، ولكن ما حيلتى ؟

وجاءونا بأطباق وملاعق وسكاكين وأشواك وفوط ، فسألت الضابط :

« من أين لكم هذا ! »

قال : « ماذا تظن ؟ »

قلت : « أظنكم أخذتموها من اللصوص الذين وقعوا فى قبضتكم »

قال : « أو لعلنا سرقناها ؟ هيه ؟ »

قلت : « كل شىء جائز فى هذه الدنيا ! ومتى صار جائزاً أن نشم النسيم فى مركز البوليس ، فكل شىء بعد ذلك هين ومقبول ومعقول »

وكان الجنود كلما دخلوا علينا بصحن أو قلة ، أو كوب أو فنجان ، يدبون بأحذيتهم الضخمة الثقيلة ، ويحيون ، ويضعون ما فى أيديهم الأخرى ، ثم يعودون إلى التحية والدب بالأرجل ، ويخرجون ، وتكرر ذلك منهم ألف مرة ، فقلت للضابط :

« ألا تعفيهم من هذا التكليف ؟ »

قال : « إنهم جنود وقد ألفوا ذلك فليس فى وسعهم إلا أن يفعلوه »

قلت : « لو لم تكن معنا لما تكلفوه »

قال : « ولكنى معكم »

قلت : « إذن فأعفنا نحن ، فانه إزعاج »

فسأل : « كيف أصنع ؟ »

قلت : « والله لا أدرى ! هل تستطيع أن تختبىء تحت المائدة حين يدخل منهم واحد ؟ »

وأكلنا هنيئاً ، وشربنا مريئاً ، ولم تمنعنا هذه التحيات والدبات أن نضحك ونمزح ، ولم يحل شعورنا بوجودنا فى « مركز البوليس » دون التبسط والمرح ، واحتجت بعد ذلك أن أنام دقائق ، والنوم من عاداتى بعد الغداء ، فاذا حرمته حرمت الراحة ، وتفتر جسمى ، وغاض معين نشاطى ، وساء خلقى ، وانقلبت مخلوقاً شرساً مشاكساً ، وشريراً مجرماً ، تقذف عيناه بالشرر ، ومن أجل هذا تتخذنى زوجتى هولة تخوف بى الأطفال والخدم . فاذا رأت أنى لم أنم بعد الظهر ، أقبلت تقول :

« تعال ! »

فأقول : « إلى أين ؟ »

فتقول : « تعال خوّف الأطفال ، فانهم لا يريدون أن يسكنوا ! »

فأقول : « ياسيدتى ، إن التخويف شر أساليب التربية »

فتقول : « دع هذه الفلسفة وقم ، فقد كاد رأسى يطير من ضجتهم ؛ ثم إن عند الجيران أطفالاً كثاراً يصيحون ، فأخرج لهم وجهك من النافذة يخرسوا ، وفى الشارع رجال يتشاجرون فاذهب اليهم واطردهم إلى شارع آخر »

فأهز رأسى وأقول : « تالله ما اشتهى إلا أن أخوفك أنت ! » ثم أنهض آسفاً ، وأصدع بما أمرت ، فيهدأ البيت ويسكن الشارع ، ويخفت كل صوت حتى صوت الترام ، فينشرح صدرها وتقرعينها ، وتتنهد مسرورة ، وتقول : « ليت أنك لا تنام بعد الظهر أبداً ! »

فأسألها : « أتكرهين لى الراحة ؟ »

فتسألنى مغالطة : « أتكره لى أنت الراحة ؟ »

فلا أجد جواباً حسناً ، وأسألها : « هل أستطيع أن أنام الآن ؟ »

فتقول : « وإذا قامت ضجة جديدة ؟ »

فأقول : « اطمئنى . . . وفى وسعك دائماً أن توقظينى لهم »

فتذهب تصف وجهى معجبة بما يكون مرتسماً عليه من مظاهر الافزاع وبواعث الرعب ، مباهية به وجوه القتلة والسفاحين وقطاع الطريق ؛ ولكن هذا استطراد ، فلنرجع إلى ما كنا فيه من شم النسيم

كان لا بد أن أنام ، فنمت على كرسيين ، حططت نفسى على واحد ، ومددت ساقى على الآخر ، ولم يكن هذا فراشاً وثيراً بالمعنى الصحيح ، ولكن النسيم كان عليلاً فى مركز البوليس ، فأغفيت دقائق زعمها أصحابى ثلاثين ، وقالت لى عظام المهيضة